ديزيره سقال

لا شيءَ فِيَّ سِوايَ







٢٠٢٣

ديزيره سقال

لا شيءَ فِيَّ سِوايَ



٢٠٢٣

أَمْشي إِلَيَّ...
وَلَيْسَ بَيْني والطريقِ سِوايَ.
أَمْشي مُثْقَلًا بِهَواجِسي —
وَهَواجِسي حَقْلٌ بِجِلْدِ الروحِ
يَأْخُذُني إِلى وَرْدِ الفَضاءْ.
لُغْزٌ أَنا

فِي كَبْوَةِ الميثاقِ
بَيْني والسَّماءْ...
لُغْزٌ أَنا
تَتَوالَدُ الأَشْياءُ مِنْهُ
وَيَسْتَفيقُ السِّرُّ فيهِ
عَلى رِياحِ قَرارتي.
هذا المساءْ
يَخْضَرُّ فِيَّ المشْهَدُ
ٱلْمَعْجونُ بِالذَّهَبِ الدَّفينِ...
وَلَيْسَ فِيَّ سِوايَ.
لَيْسَ العُمْرُ غَيْري،
وَالمدى... كُلُّ المدى

عُنْقودُ نارٍ
خَمَّرَتْها طَفْرَةُ الزَّمَنِ الطَّويلِ.
أَمْشي إِلَيَّ...
وَلَيْسَ فِيَّ سِوى جِبالِ العُمْرِ
تَأْخُذُني
وَتَعْبُرُ في ذُهولي...
وأَصيرُ أَكْبَرَ فَجْأَةً،
وَأَظَلُّ أَنْفُرُ مِنْ رَحيلي
أَعْلى مِنَ الهَذَيانِ:
مُعْجِزَةً يُحاصِرُها رِياءُ الوَقْتِ
في مَلَكوتِهِ الأَبَدِيّ...
أَمْشي مُتْرَعًا بالعَزْمِ

يَدْفَعُني
وَيَرْسُمُ لي دَليلي...
وَأَنا ضَميرُ السِّرِّ
يولَدُ فِيَّ أَسْرارًا مُبَعْثَرَةً
عَلى حَبَقِ الخَيالِ.
سَأَبْدَأُ الكَلِماتِ مِنّي،
غامِسًا بِقَرارتي كُلَّ المحيطِ
لِكَيْ أَكونَ أَنا صَهيلَ الوَعْرِ
في حُلُمي...
وَيَحْمِلَني صَهيلي.
أَمْشي إِلَيَّ
لِأَقْرَأَ الوَقْتَ الَّذي يَلْتَفُّ

فِي أَدْغالِهِ،
وَأُزاوِجُ الأَيّامَ
فِي تَرْدادِها المثْقوبِ بِالعُمْرِ العَجيبِ
لِأَنَّها لَمْ تَنْتَظِرْ أَحَدًا تَأَخَّرَ،
لَمْ تُحَصِّنْ مَرْكَباتِ زَمانِنا بِالشِّعْرِ،
لَمْ تَشْتَقْ إِلى ماضٍ
يُعَلِّقُهُ الزَّمانُ على جِدارِ الذّاكِرَهْ...
ذاتي تُوَزِّعُها التَّجارِبُ بَيْنَ أَحْرُفِها
وَتَغْزِلُها حُروفًا آسِرَهْ
لِتَكونَ نَصًّا فارِغًا فِي الشِّعْرِ،
مُنْعَجِنًا بِرائِحَةِ الزّمانِ،
يَشُقُّ فِي الدُّنْيا سَبيلي.

هَذا كِتابٌ عُدْتُ أَفْتَحُهُ
لِأَقْرَأَ فِيَّ أَحْلامي،
وَأَحْلامي دَليلي...

***

ذاتي مَرايا أَسْئِلَهْ
وَتَجارِبي حَبٌّ
يُجَمِّعُهُ الزّمانُ كَسُنْبُلَهْ،
وَأَنا
تُحَرِّرُني الحُروفُ
فَأَسْتَظِلُّ الشِّعْرَ مِثْلَ غَمامَةٍ

تَأْتي وَتَحْمِلُني بَعيدًا
حَيْثُ لا شَيْءٌ سِوايَ،
وَلا مَدًى إِلّا ظِلالي وارِفاتٍ،
والغُصونُ
هَصَرَتْ يدايَ ثِمارَها،
فَتَحَوَّلَت شِعْرًا،
حُروفًا مِنْ ضِياءٍ
نَزَّها عُمْري فَأَرَّخَني
وَصارَ سُطورَ تاريخٍ
تُجَسِّدُهُ شُروقاتي
عَلى بَوّابَةِ المَنْفى الزَّمانِيِّ
ٱلَّذي أَرْقى إِلَيْهِ...

أَنا زَمَانٌ مُتْرَعٌ بِزَمانِهِ،
وَأَنا رَحيلٌ خارِجٌ
مِنْ لَعْنَةِ "العَهْدِ العَتيقِ"
إِلى فَضاءٍ لَيْسَ يَسْكُنُهُ
سِوى نورِ المَحَبَّةِ
صاعِدًا نَحْوَ السّماءِ...
أَنا غِيابٌ حاضِرٌ لَمّا يَحِنْ
لَكِنَّهُ رَسَمَتْ مَلامِحَهُ الظُّنونُ...
لي مِنْ أَنايَ أَنا،
وَمَمْلَكَتي فَضاءٌ مُسْتَحيلٌ كالظّنونِ
فَلَيْسَ تَبْلُغُها العُيونُ.
لي مِنْ أَنايَ أنا،

وَلي في مَسْرَحِ العُمْرِ
ٱلَّذي يَمْتَدُّ خارِجَ وَقْتِهِ أُفُقٌ غَريبٌ
بِتُّ أَبْحَثُ فيهِ عَنْ ذاتي،
وَذاتي مُسْتَحيلٌ
لَيْسَ يُدْرِكُهُ سِوايَ
متى ٱسْتَقَرَّ الشِّعْرُ في صَدْري
وَبارَكَني الجُنونُ...
وَأَنا... أَنا! ما فِيَّ غَيْري...
كُلَّما نَظَرَتْ إِلى العَلْياءِ عَيْني
شَدَّها نورٌ غَريبٌ،
وَارْتَمَتْ ذاتي على ذاتي
يُضَمِّخُها عَبيرٌ

صاعِدٌ فيها إلَيْها،
أَبْيَضٌ كالنورِ،
يَحْمِلُهُ – كَنَسْرٍ – جانِحٌ
شَفّافَةٌ رَفّاتُهُ...
لي مِنْ أَنايَ أَنا،
وَلَيْسَ بِداخِلي إلّايَ،
فَلْيَهْدَأْ بِقَلْبي الموْجُ،
وَلْيَكُنِ الفُتونُ
حَقْلًا مِنَ الأَنْوارِ يَغْمُرُهُ كِياني
أَوْ يُتَوِّجُني،
فَأَعْرِفُ مَنْ أَكونُ...

***

"مَنْ أَنْتَ؟"
قالَ الوَحْيُ
وَهْوَ يُحيطُ بي.
"– أَنا ما أُريدُ." أَجَبْتُ،
"لَمْ يَنْبُذْنِيَ الضَّوْءُ
ٱلّذي جَعَلَ الحُروفَ مِساحَةً بَيضاءَ

مِنْ حُلُمٍ تَوَشَّحَ بي
كَما يَتَوَشَّحُ الفينيقُ بالنارِ."
ٱنْتَظَرْتُ.
رَأَيْتُ صورَتِيَ الجَديدَةَ،
غَيْرَ أَنّي لَمْ أَجِدْ إِلّايَ فيها؛
لَمْ أَجِدْني
غَيْرَ طِفْلٍ شَبَّ
فَاشْتَعَلَتْ طُفولَتُهُ لِتُنْضِجَ شِعْرَهُ
وَتَظَلَّ مِحْبَرَةً
يُغَمِّسُ حَرْفَهُ فيها،
وَيَبْقى
كُلَّما دَرَجَتْ بِهِ طَفَراتُهُ في العُمْرِ

طِفْلًا أَزْهَرَتْ سَنَواتُهُ
وَتَخَيَّلَتْها النّاسُ عُمْرًا عابِرًا.
"مَنْ أَنْتَ؟" قالَ الوَحْيُ،
قُلْتُ: "أَنا قِيامَتِيَ الَّتي تَأْتي
طَوالَ العُمْرِ
أَقْوى مِنْ أَزاميلِ الزَّمانِ.
أَنا رِياحُ الشِّعْرِ
تَقْتَحِمُ الغُيوبَ.
أَنا الشُّرودُ،
وأَنا العَناوينُ الكَثيرةُ وَالرَّسائِلُ وَالبريدُ."
هَذا هُوَ ٱسْمي.
كُنْتُ أُدْرِكُ.

لَمْ أَقُلْ،
لَكِنَّ بَرْقًا قالَ لي:
"هَذا هُوَ ٱسْمُكَ."
ثُمَّ أَخْفاهُ الغِيابُ...
وَعِنْدَها
أَدْرَكْتُ أَنَّ طُفولَتي لا تَنْتَهي.
أَدْرَكْتُ أَنَّ العُمْرَ لَمْحٌ
كالسَّرابِ، وَأَنَّني،
في ذاتِيَ العَصْماءِ،
كُلُّ العُمْرِ،
أَنَّ طُفولَتي عُمْري،
تُلازِمُني عَميقًا، والوجودُ

ظِلٌّ لِذاتي،
يَرْتَدي حُلَلي،
فَيَصْغُرُ أَوْ يُمَدَّدُ مِنْ رُؤايَ،
فَلا وُجودَ سِوايَ،
لا عُمْرٌ
سِوى زَمَني الذي لا وَقْتَ فيهِ،
لا نِهايَةَ أَوْ بِدايَةَ،
لا قَديمٌ أَوْ جَديدُ...
كُلُّ ما فينا
ٱنْبِثاقُ اللَحْظَةِ الأَبَدِيَّةِ العَصْماءِ،
ذاتٌ لا تَزولُ إِذا أَرَدْنا.
"شَأْ تَكُنْ."

هذا هُوَ ٱسْمي،
قالَ لي بَرْقٌ،
وأَخْفاهُ الغِيابُ...
وَكُنتُ أُدْرِكُ.
كُنْتُ في وَسْمِ الطّفولَةِ
أَرْتَدي أَلْوانَها،
وَأَظَلُّ أَرْسُمُها وَتَرْسُمُني،
وَأَخْلُقُ ما أُريدُ.

***

كُنْتُ القَصيدَةَ...

حِكْمَتي

أَنَّ الحُروفَ تُزامِلُ الخُلْدَ الطَّويلَ،

وَأَنَّ نورَ الشِّعْرِ يَحْمِلُني

إِلى صَفْوِ السَّماءْ...

ذاتي تَمُرُّ أَمامَ عَيْني

كَالمِدادِ،
فَأَقْرَأُ الأَيّامَ مَلْحَمَةً، مُعَلَّقَةً،
وَأَنْسى أَنَّني أَرِثُ الوُجودَ
مِنَ الحُضورِ اللازَوَرْدِيِّ —
ٱلسَّماءُ قَصيدَتي،
وَحَقيقَتي أَنّي نَشيدٌ
فاضَ مِنْ عَبَقِ السّماءِ،
تَدافَعَتْ فيهِ الأَغاني
فَاسْتَرَدَّ بِهِ الغِناءْ
ما ضَيَّعَتْهُ صَفاقَةُ الأَرْضِ الثَّقيلَةُ —
كُنْ، يُها الآتي،
عَلى أَرْضي القَصيدَةَ،

وَٱفْتَرِشْ روحي
لِتَنْتَزِعَ الصّفاءَ مِنَ الأَعالي،
وَٱسْتَزِدْ ناري
لِتَغْدُوَ أَنْتَ فينيقي وَتُحْرِقَني
فَأُبْعَثَ في مَعاريجِ الصَّفاءْ.
كُنْتُ القصيدَةَ...
لَمْ أَزَلْ أَحْلامَ طِفْلٍ
كَوَّرَ الزَّمَنَ الصَّفيقَ
لِيَخْلُقَ التاريخَ، بَعْدُ،
مُجَرَّدًا مِنْ زيفِهِ،
وَمُفَرَّغًا مِنْ ثِقْلِ هذا الواقِعِ العَرَضِيّ.
كُنْتُ بُطولَةَ الأَحْلامِ

تَخْلُقُها "أَنا" أُخْرى،
وَتُسْلِمُني قِيادَتَها
لِأَفْعَلَ ما أَشاءْ...
كُنْتُ القَصيدَةَ...
يا ٱلَّتي تَأْتي إِلَيَّ مِنَ العَميقِ،
تَعانَقي في واقِعي،
وَتَكاثَري في عُمْقِ أَغْواري
لِأَخْرُجَ مِنْ زِفافِكِ طَفْرَةً شِعْرِيَّةً
كالغولِ والعَنْقاءِ.
أَمْشي في الزَّمانِ...
وَفَوْقَ ظَهْري ذلِكَ الإِرْثُ الطَّويلُ
مِنَ الصَّفاءِ،

وَأَصْنَعُ الأَيّامَ بِكْرًا تَسْتَقيمُ بِقامَتي،
فَأَنا القَضاءْ،
وَأَنا الَّذي عَبَرَ الزَّمانُ إِلَيْهِ في دَوْراتِهِ،
فَتَوالَدَتْ فيهِ الحُروفُ كَأَنَّها ثَمَرٌ،
وَصارَ الشِّعْرُ في دَمِهِ لَهيبًا
وَالقَصيدَةُ فَوْقَ كِتْفَيْهِ غِطاءْ،
عَبَرَتْ بِيَ الأَيّامُ نَحْوي
فَانْكَشَفْتُ لِناظِري أَلَقًا
يُعانِقُهُ البَهاءْ...

***

سَأَعودُ نَحْوَ بِدايَتي ريحًا:
أَرى طِفْلًا
تُقاسِمُهُ النُّجومُ بَريقَها،
يَرْنو إِلَيْها
ثُمَّ يَسْبِقُ ظِلَّهُ
لِيَقولَ إِنَّ خُطاهُ أَكْبَرُ مِنْ خُطى الأَيّامِ،

يَنْتَزِعُ البَريقَ مِنَ البَريقِ،
وَيُطارِدُ الأَحْلامَ
تَأْتيهِ مِنَ الصَّفَحاتِ في أَعْماقِهِ
بِكْرًا،
يُسابِقُها إِلى النَّجْماتِ،
يَصْنَعُ مِنْ تَلأْلُئِها مَناراتِ الطَّريقِ.
طِفْلٌ يَقودُ إِلَيْهِ
كُلَّ الكَوْنِ في رَسْمٍ وَحيدٍ
خارِجٍ مِنْ نَفْسِهِ،
وَيَطيرُ بِالدُّنْيا
لِيَجْعَلَها عَلى أَحْلامِهِ...
وَتَضيقُ، يوسِعُها...

تَضيقُ، يُعَبِّدُ الحُلُمَ الوَسيعَ بِها...
تَضيقُ... تَضيقُ... يوسِعُها
لِتَغْدُوَ مِثْلَ أَحْلامِ الطُّفولَةِ.
لَيْسَ يَسْكُنُهُ سِواهُ،
وَلَيْسَ يَخْرُجُ مِنْ شَراراتِ الحَريقِ
غَيْرُ عَنْقاءٍ
تَجَلّى قَلْبُهُ فيها،
تُؤَرِّخُ كُلَّ ما يَأْتي لَهُ،
وَتُعيدُ رَسْمَ فُؤادِهِ المفْتوحِ
آنًا بَعْدَ آنٍ...
كُلَّما بَهَتَتْ خُطوطُ حُدودِهِ
رَسَمَتْهُ...

حَتّى لَمْ يَعُدْ يَخْفى عَلَيْهِ الحَدُّ —
أَدْرَكَ أَنَّ هذا الحَدَّ
حُلْمٌ كانَ يَأْسُرُهُ
سَيَحْمِلُهُ إِلى الآتي
عَلى نورٍ رَقيقٍ
يَكْبو لِيَصْنَعَ كُلَّ ما سَيَظَلُّ فيهِ:
مَكانَهُ وزَمانَهُ،
وَعَراقَةَ الحَرْفِ الَّذي سَيَكونُ مُنْبَعِثًا
مِنَ الوَحْيِ العَريقِ...
ريحًا يَظَلُّ،
وَوالِداهُ وَأَهْلُهُ وَطَنٌ
يُشَرِّعُ بابَهُ لِرَحيلِهِ

نَحْوَ ٱنْبِثاقِ النورِ فيهِ.
وَكُلَّما شَدَّتْهُ تَجْرِبَةٌ إِلى صَعْبٍ
رَماهُ بِالبَريقِ
فَأَثْمَرَتْ حُلُمًا جَديدًا.
كُلَّما ٱعْتَرَضَتْ لَهُ في الدَّرْبِ نائِبَةٌ
تَجاوَزَها إِلى خَطٍّ مِنَ النورِ الرَّفيقِ —
كُلُّ وَحْيٍ فيهِ يُخْرِجُهُ
مِنَ الجِلْدِ العَتيقِ.

***

هذا أنا.

شَبَّتْ بِيَ الأَيّامُ فانتصَبَ الشّبابُ.

وَتَفَتَّحَتْ فِيَّ الخَبايا

مِنْ تَضاريسِ الزّمانِ.

تَفَتَّحَتْ أَلْحانُ حُلْمي

فَارْتَدَيْتُ السِّرَّ،

عانَدْتُ الزَّمانَ لِأَسْتَديرَ عَلَيَّ أَكْثَرَ –
كُنْتُ ما أَدْري،
وَمَهَّدْتُ الزَّمانَ
لَيَسْتَفيقَ عَلى مَناراتي
وَيَحْترِقَ السّرابُ.
كانَتْ على عَيْنَيَّ راياتي
تُسَيِّرُني بِعَكْسِ الريحِ،
تَنْفيني إِلى حُرِّيَّتي،
فَأُواجِهُ الأَشْياءَ فَوْقَ عِظامِ أَشْلائي،
وَيَبْذُرُني الترابُ
فَوْقَ المدى
فَأَشُبُّ سُنْبُلَةً عَلى دَرَجِ الكَلامِ،

وَأُقْحُوانًا في مَدارِ الأَبْجَدِيَّةِ
يَنْشُرُ الرَّيّا عَلى عُمْرٍ
تَغَمَّسَ في الضِّياءِ،
وَلَمْ يَرَ الدُّنْيا سِوى أُغْنِيَّةٍ
عَبَثَتْ بِفَنِّ القَوْلِ
فَانْكَشَفَ الضَّبابُ.
"أَيْنَ ٱسْتَفَقْتَ على المحالِ،
يُها الذي نَثَرَ المحالَ
على حُقولِ الشِّعْرِ،
أَيْنَ؟"
أَجَبْتُهُ: "إِنّي المدى...
كُلُّ المدى،

لا "أَيْنَ" فِيَّ ولا حُدودَ،
وَجُذْوَتي فَتْحٌ إِلَهِيٌّ
يُبيحُ لِيَ المصيرَ لِأَلْتَقي قَدَري.
أَنا قَدَري.
أَنا الآياتُ والصَّلَواتُ في ذاتي.
أنا النورُ الذي ٱلْتَمَّتْ عَليهِ
خُلاصَةُ الدُّنْيا وَدَوَّنَهُ كِتابُ..."
كُنْتُ الصدى
يَأْتي مِنَ الأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ،
يَحْمِلُني إِلَيْها،
ثُمَّ أُولَدُ كُلَّ يَوْمٍ في حُروفِ الشِّعْرِ
مُحْتَضِنًا قَصيدَتَها...

وَصِرْتُ قَصيدَتي.
سَمَّيْتُني،
فَتَسَمَّتِ الأَشْياءُ بي،
وَعَرَفْتُ أَنَّ غِنائِيَ الآتي مِنَ ٱلأَعْلى
يُغَطّيني،
فلا شَيْءٌ سِوايَ:
قَصيدَتي صَوْتي،
أَطيرُ بِها وَتَحْمِلُني الشِّعابُ.
هَذا أَنا:
شَبَّتْ بِيَ الأَيّامُ فاخْضَرَّتْ،
وَعانَقَني الزَّمانُ
فَمَدَّ ظِلّي فَوْقَهُ

وَتَسَمَّتِ الآناتُ بي –
هَذا هُوَ ٱسْمي،
لَيْسَ فِيَّ سِوايَ،
لَيْسَ لِعِشْقِيَ الأَبَدِيِّ تاريخٌ،
فَمَنْذا تَسْأَلُ الأَيّامُ عَنّي، يا تُرى،
وَبِأَيِّ أَجْوِبَةٍ تُجابُ؟
***

نَزَلَتْ إِلَيَّ كُهولَتي
مِنْ سُلَّمِ الأَيّامِ
حامِلَةً بَقايا السِّرِّ،
لَكِنّي رَأَيْتُ الطِّفْلَ فِيَّ يُطارِدُ الأَحْلامَ
حَتّى في المآسي،
في ٱنْحِناءاتِ السَّعادَةِ وَالتعاسَةِ،

يَسْتَديرُ عَلَيَّ مَنْفِيًّا إِلَيْهِ
كَأَنَّما الأَيّامُ تُخْطِئُهُ
وَيَحْفَظُهُ هُيامُ.
كَهْلٌ أَنا،
لَكِنَّني مُتَحَرِّكٌ
بَيْنَ الـ"هُنا" وَاللازَمانِ،
وَبَيْنَ دُنْيا
أَفْرَغَتْ أَبَدِيَّتي مِنْ ذاتِها
وَمَتاهِ مِعْراجٍ يُعانِدُني
لِأَصْعَدَ فيهِ.
صَدْعٌ كُلَّما عانَدْتُهُ
رَجِعَتْ إِلَيْهِ ٱلذّاتُ

وَٱمْتَدَّ المنامُ.
وَأَمُرُّ بالمأْساةِ وَالذِّكْرى،
وَيَضْرِبُني الظّلامُ، يَشُجُّني...
فَأَظَلُّ مُنْتَصِبًا
وَيَسْقُطُ دونَ أَحْلامي الظّلامُ.
وَأَنا... أَنا!
لا شَيْءَ آخَرَ،
لَيْسَ فِيَّ سِوايَ
حَتّى في ٱزْدِواجِ طَبيعَتي:
طِفْلٌ تَقافَزَ في المدى حَوْلي
وَكَهْلٌ عاصَرَ الأَوْقاتَ مُخْتَلِفًا،
وَجَرَّحَهُ القَتامُ.

تَأْتي إِلَيَّ تَجارِبي،
وَيَمُرُّ بي وَقْتٌ وَوَقْتٌ:
تارَةً بِوُرودِهِ
فَيَفوحُ فِيَّ أَريجُها،
أَوْ حامِلًا أَشْواكَهُ
فَتَشُقُّ لَحْمي...
غَيْرَ أَنّي أَسْتَفيقُ مِنَ الجِراحِ
عَلى خُطى طِفْلٍ يُسامِرُني
وَيَفْتَحُ فِيَّ ذاكِرَتي
فَتَنْتَحِرُ الرَّزايا حَوْلَ جُدراني،
وَأَثْبُتُ في القصيدَةِ واحِدًا أَحَدًا،
أُساكِنُها،

وَأُدْرِكُ، إِذْ يَطيبُ لِيَ المقامُ،
أَنّي أَثيرٌ،
لا بِدايَةَ أَوْ نِهايَةَ لي،
وَأَنّي
أَنْقَذَتْني شاعِرِيَّةُ وَعْيِيَ ٱلْمَعْجونِ بالأَحْلامِ؛
لا شَيْءٌ يُغَيِّبُهُ
ولا زَمَنٌ،
وَلَيْسَ لَهُ انْتِظامُ!
هذا أنا:
كَهْلٌ تَفَتَّحَ
في حُقولِ زَمانِهِ عِنَبًا
لِتَعْصُرَهُ التَّجارِبُ خَمْرَها –

فَأَنا الـمُدامُ.

هذا أنا:

طَفَراتُ عُمْرٍ جامِحٍ

تَحْوي لُهاثَ الوَقْتِ، لَكِنّي

أَظَلُّ أَسيرُ فَوْقَ شَفيريَ المـْتَدِّ،

بَينَ طُفولَةِ الزَّمَنِ

ٱلّتي تَرَكَتْ نَضارَتَها بِوِجْداني

وَبَيْنَ ظِلالِ غاباتٍ

تُمَدِّدُها التَّجارِبُ في أَنايَ.

أَسيرُ...

أَسْقُطُ،

ثُمَّ أَنْهَضُ،

ثُمَّ أَسْقُطُ،
ثُمَّ أَنْهَضُ...
لا سَآمُ:
لا شَيْءَ فِيَّ وَخارِجي إِلّايَ –
وَعْيٌ وَحْدَهُ يُعْطي الوُجودَ وُجودَهُ،
فَهْوَ التَّبَعْثُرُ وَالتَّجَمُّعُ،
وَالتَّدَهْوُرُ وَالنِّظامُ.
وَعْيٌ مَليءٌ بي،
وَسِرٌّ غامِضٌ كَالخَلْقِ يَأْسُرُني،
فَكَيْفَ تُعَبِّرُ الكَلِماتُ عَنْ وَعْيي،
وما يُجْدي الكَلامُ؟

***

هَذا هوَ الآتي.
أَسيرُ مُعَبَّدًا بالنورِ
نَحْوَ مَقَرِّيَ الأَبَدِيِّ:
ذاتي وَحْدَها سُكْنايَ،
وَالأَلَقُ العَظيمُ مَحَجَّتي.
لَمْ أَرْفَعِ الكَلِماتِ،

لَكِنَّ الكَلامَ
يَطيرُ بي نَحْوَ الشَّفَقْ.
ما كُنْتُ غَيْرَ الزَّهْرِ في قَلْبي
يُضيءُ بِهِ العَبَقْ.
وَغَدًا سَيَأْتي ما سَيَأْتي،
وَالنُّفوسُ تَهُزُّ مِنْ حَوْلي عَلامَتَها،
وَيَحْمِلُني الذُّهولُ إِلى الذُّهولِ،
يَطيرُ بي نَحْوَ الشُّرودِ اللازَوَرْدِيِّ
ٱلَّذي يَسَعُ الحُروفَ جَميعَها نَسَمًا.
فيا زَمَنُ، ٱنْتَظِرْ، هَذا أَنا...
لا أَرْتَوي
إِلّا بِذاتي في تَكامُلِها...

وَيا زَمَنُ، ٱسْتَبِحْ هَوْلَ النُّفوسِ،
فَلَيْسَ فيها غَيْرُ ساعاتٍ
يُوَشِّحُها ٱنْكِسارٌ دائِمٌ.
هَذا هُوَ الآتي:
سَديمٌ ضاعَ في فَوْحِ الأَلَقْ.
ما شَأْنُ ذاتي بِالزَّوالِ؟
لَدَيَّ وَقْتي دائِمًا،
وَلَدَيَّ هَذا الواقِعُ الطّينِيُّ
أَتْرُكُهُ لِمَنْ يَحْيا
فلا يَخْتارُ أَنْ يَبْقى،
وَأَتْرُكُهُ لِأَجْسادٍ يُحَطِّمُها القَلَقْ.
آتِيَّ أَنْتَ، يُها العَبيرُ،

وَوَقْتِيَ العُلَوِيُّ،
لا حَدٌّ يَحُدُّكَ،
لا تُخومٌ،
لا زَمانَ، ولا مَكانَ...
وَلَسْتَ تَحْيا كَيْ تَصيرَ،
فَأَنْتَ، مِثْلي، واحِدٌ في ضَوْعِكَ الأَبَدِيِّ،
تَحْمِلُني إِلَيْكَ
وَتَسْتَظِلُّ بِكَ الفُنونُ،
تَذوبُ فيكَ لِتُشْرِقَ الأَحْلامُ.
عَرَّتْكَ الفُنونُ، أَيا زَمانُ،
فَلَيْسَ شَأْنُكَ شَأْنَها...
عَرَّتْكَ،

فارْتاحَ الجَمالُ
على مدى الأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ
وَالنورُ ٱنْبَثَقْ.
هذا هوَ الآتي:
فَلَيْسَ يُديرُهُ زَمَنٌ سَرابِيٌّ
وَلا طينٌ عَلَقْ!

***

صُوَرٌ تَعودُ إِلَيَّ
مِنْ ماضِيَّ
عابِقَةً بِوَرْدِ الذِّكْرَياتِ.
أَبي وَأُمّي زَيَّناها بِالحَنانِ
فَأَوْرَقَتْ في عُمْقِ ذاتي،
وَٱحْتَمَتْ في أَبْجَدِيَّتِها

حُروفُ ٱلشِّعْرِ
تَأْسُرُني وَتَخْرُجُ مِنْ بِحارِ الحِبْرِ،
أُعْتِقُها لِتَرْحَلَ في الرُّؤى
وَأَنا الأَسيرُ...
ما عُدْتُ،
إِذْ صَدِئَ الزَّمانُ بِقَلْبِيَ المفْتوحِ
وَٱنْكَسَرَتْ مَرارَتُهُ،
سِوى حَرْفٍ
يُحَلِّقُ في مَدى الأَبَدِيَّةِ البَيضاءِ
فاحَ بِهِ العَبيرُ...
أُمّي، أَبي،
سُكْنايَ في صُوَري الّتي حُمِّلْتُها

فاحَتْ بَهاءً
وَهْيَ تَنْهَضُ في قَراري
ثُمَّ تَحْمِلُني إِلى الأَعْلى
لِأَكْتَشِفَ النشيدَ السَّرْمَدِيَّ
وَراءَ حَدِّ غِيابِنا.
أُمّي، أَبي،
صُوَري الّتي حُمِّلْتُها خَضراءَ
يَحْضُنُها الضَّميرُ،
وتَطيرُ بي خَلْفَ الزَّمانِ،
فَلا هُدوءَ ولا هَديرٌ،
بَلْ طَوافٌ حَوْلَ ذاتٍ
لا تُساكِنُها سِوى أَبَدِيَّةِ الشِّعْرِ

ٱلَّتي وَلَدَتْ مَلايينَ الرّؤى
لَكِنَّها ظَلَّتْ بَتولًا...
لا هُدوءَ ولا هَديرَ
سِوى غِناءِ اللازَمانِ
عَلى رُبًى زَرْقاءَ —
والِدَتي، أَبي،
صُوَري الَّتي حُمِّلْتُها مثلَ العصافيرِ
ٱمْتَلَأْتُ بِها،
وَفارَتْ مِنْ أَنايَ
عَلى خُطى مَشروعِيَ المـُمْتَدِّ في الساعاتِ.
فَانْهَضْ، يا ضَميرُ،
وَحُثَّ فِيَّ مَسيرَتي،

فَأَنا ٱلهَواءُ
يَمُرُّ في كُلِّ الجِهاتِ،
أَنا ٱلحُروفُ
تَشُبُّ مِنْ حُرِّيَّةِ الرُّؤْيا،
أنا ٱلوَهْجُ الكَبيرُ،
وَأَنا الهُنَيْهاتُ الَّتي ذابَتْ بِبَحْرِ اللازَمانِ.
أَنا هُنا:
ذاتي المليئَةُ بي تُعانِقُني
وَتَأْمُرُني فَأَجْعَلُها بِقَلْبِ الحَرْفِ نَبْضًا
حينَ لا يَسَعُ الخَيالَ ظِلالَها.
وَأَرى أَرى
أُمّي الَّتي داعَبْتُ صورَتَها بقَلْبي

وٱحْتَمَيْتُ بِراحَتَيْها
إِذْ تَذُرّانِ الضِّياءَ على المدى،
وَأَبي الَّذي ما زالَ يَضْحَكُ في الصَّدى،
وَأَخي يُسَلِّمُني الحروفَ
لِأَصْنَعَ الآتي بِها –
يَتُها الحُروفُ، تَمَدَّدي فِيَّ،
ٱرْفَعيني عَنْ بَلاهاتِ المدى المعْجونِ بالطينِ،
ٱخْرُجي مِنْ لازَوَرْدِ الحُلْمِ
يَخْبُزْكِ النشورُ،
وَيَقودُني حُلُمٌ إِلى أَقْصايَ،
يَنْفَتِحُ المصيرُ،
ثُمَّ تَبتَدِئُ الطّريقُ إِلى الخُلودِ،

يَعودُ كُلُّ الغائبينَ إِلى سُطوري
مِثْلَما حَطَّتْ عَصافيرٌ
عَلى أَغْصانِ وَحْيٍ وارِفٍ.
آتي إِلَيَّ مِنَ الغُيوبِ
كَأَنَّني حُلُمٌ تَفَتَّحَ في قراري
وَٱسْتَفاقَ بِهِ العُبورُ –
عَبَرَتْ حُروفي مِنْ قُصورِ الطينِ
نَحْوَ اللانِهايَةِ
في مَدًى
مَمْدودَةٍ آفاقُهُ فَوْقَ الجِهاتِ،
وَعانَقَتْ ما فِيَّ مِنْ نورٍ
فَعانَقَها النُّشورُ.

وَعَرَفْتُ أَنّي لَسْتُ مِنْ طينٍ،
أُحَلِّقُ في فَضاءِ رُؤًى
وَأُدْرِكُ ما أَكونُ وَما أَصيرُ...

***

وَرَأَيْتُ ذاتي هَشَّةً في طينِها،
وَعَظيمةً بِضِيائِها وَخُلودِها،
وَرَأَيْتُ حَوْلي ٱلواقِعَ الطّينِيَّ
يُدْرِكُهُ الشُّحوبُ...
كُلُّ المدى حَولي
يُذَكِّرُني بِأَنّي حالِمٌ،

وَبِأَنَّ حُلْمي يَبْدَأُ الأَشْياءَ
كُلَّ قصيدَةٍ،
وَبِأَنَّني
ما زِلْتُ عُشْبًا في مَدى أَبَدِيَّتي
يَخْضَرُّ مِنْ وَحْيي،
وَيَبْقى أَخْضَرًا –
ما زِلْتُ لَحْنًا أَخْضَرًا
يَنْداحُ مِنْ قيثارَةِ الأَبَدِيَّةِ
ٱنْفَتَحَتْ لَهُ آذانُها،
وَٱرْتَدَّ في أَعْماقِها
لَحْنًا يَطيبُ.
ما زِلْتُ أُشْعِلُ في الحروفِ هَديرَها

فَيُجيبُني رَجْعٌ عَجيبُ...
ما زِلْتُ أُصْغي لِلْغِناءِ
تَنَزَّلَتْهُ أَحْرُفي مِنْ فَوْقُ،
لا تَكْرارَ يُرْهِقُها
وَلَيْسَ بِها رُتوبُ.
أَمْشي إِلَيَّ
كَأَنَّني نَذْرٌ لِذاتي.
كُلُّ شَيْءٍ فِيَّ تَجْرِبَةٌ
تَرابَطُ بِالزَّمانِ،
وَبي زَماني
حَلْقَةٌ أَبَدِيَّةٌ لا تَنْتَهي.
بِي وَقْتِيَ المعْجونُ بِالأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ

يَأْتيني وَيَرْحَلُ...
ثُمَّ يَأْتي،
ثُمَّ يَرْحَلُ...
حَلْقَةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنا بِمَرْكَزِها،
فَكُلُّ الواقِعِ الطّينِيّ قَبْضُ الرّيحِ،
كُلُّ العُمْرِ أَوْهامٌ تَذوبُ،
لا شَيْءَ فيهِ ثابِتٌ إِلّايَ –
وَحْدي ثابِتٌ في العُمْرِ،
تَعْبُرُ حَوْلِيَ الأَيّامُ
وَالزَّمَنُ القَصيرُ يَدورُ...
ثُمَّ يَدورُ...
ثُمَّ يَعودُ مُتَّصِلًا،

فَلَيْسَ بِهِ سِوايَ،
وَلَيْسَ عُمْري غَيْرَ تَجْرِبَةٍ
تَكَرَّرُ كُلَّ عُمْرٍ.
لَمْ أَمُرَّ عَلَيَّ كَيْ أَفْنى،
فَحينَ فَتَحْتُ سِفْرَ الشِّعْرِ
عانَقْتُ البَقاءَ،
وَشَدَّني رَجْعٌ طَروبُ.
أَنَذا تُناديني التّجارِبُ كُلَّ يَوْمٍ
عارِياتٍ مِنْ مَكامِنِها
لِأَقْرَأَ سِفْرَها المفْتوحَ مُنْخَطِفًا،
أَنا المسْكوبَ في ذاتي،
تُعَلِّمُني أَنايَ،

فَأَقْرَأُ العُمْرَ الطّويلَ قصيدَةً
مَكْتوبَةً بِدَمي وَأَحْلامي،
يَخُطُّ حُروفَها نَبْضٌ شَبوبُ،
فَإِذا سُئِلْتُ عَنِ الزَّمانِ
بِأَيِّ أَجْوِبَةٍ أُجيبُ؟

***

– أ –

أَمشي
وَفي خَطوي فُصولُ...
وَأَرى أخي
يأتي مِنَ الزَّهْوِ الطويلِ إِلَيَّ،
يَصْطادُ الذُّهولَ

وَفي خُطاهُ بَخورُ أَيّامٍ
يُوَشّيها الذُّهولُ.
ما كانَ غَيْرَ فَراشَةٍ
ما زالَتِ الأَيّامُ تَحْمِلُها
وَتُزْهِرُ في تَأَلُّقِها الحُقولُ.
ما كانَ يَوْمًا غَيْرَ زَهْوٍ
شَكَّلَ الدُّنْيا عَلى أَحْلامِهِ،
وَرَمى دُروبَ العُمْرِ بِالأَزْهارِ،
رُغْمَ مَرارَةِ الساعاتِ أَحْيانًا.
خُطاهُ فُسْحَةٌ ضَوئِيَّةٌ
في مُنْتَهى الأَلَقِ الطَّويلِ
وَزَهْوُهُ أَلَقٌ طَويلُ...

وَأَرى أَخي...
ما زالَ يَخْتَصِرُ الزَّمانَ بِكَأْسِهِ،
يَسْقيهِ خَمْرَ ضَميرِهِ المعْجونِ بِالأَنوارِ،
يَأْخُذُ كَفَّهُ
لِيَصيرَ مَعْهُ العُمْرُ زَهْوًا
وَانْخِطافًا نَحْوَ أَعْماقِ الحُبورِ،
وَيَأْخُذُ الدُّنْيا إِلَيْهِ
فَتَسْتَسيغُ ذُهولَهُ،
وَتَعُبُّ مَعْهُ الخَمْرَ في أَحْلامِها،
فَهْوَ الذي صَنَعَ الزَّمانَ لِدَرْبِها،
وَهْوَ العَناوينُ الطَّويلَةُ والقَصيرَةُ
والدَّليلُ...

ما زالَ يَحْمِلُهُ الزَّمانُ
إِلى خُطًى وَرْدِيَّةٍ،
لِأَراهُ في الأَحْلامِ
تَرْفَعُهُ مَعارِجُها إِلى الأَقْصى،
فَرُؤْياهُ رَنينُ اللازَوَرْدِ
عَلى رُخامِ المستَحيلِ،
وَوَجْهُهُ عَبَقٌ بَتولُ...
أَلِفٌ سَناهُ
وَهْوَ يَغْرُسُ في المدى أُفُقًا،
وياءٌ بَحْرُ نَشْوَتِهِ،
فَماذا، بَعْدُ، يُجْدي
أَنْ يُفَلْسِفَ هَذِهِ الدُّنْيا،

وَماذا قَدْ يَقولُ؟

***

– ب –

أَمشي...

وفي خَطْوي فُصولٌ...

كُلُّ ذاتي شاشَةٌ...

وَأَرى أَبي

يَأْتي منَ الأَحْلامِ يَحْمِلُها،

وَيَبْلُغُ ذاتَهُ،

لَكِنَّهُ يُنْفى إِلى الدُّنْيا وَحيدًا،

قَلْبُهُ لَحْنُ الرّعاةِ،

خَطَواتُهُ في الريحِ أَزْهارٌ،
وَسُتْرَتُهُ أَغاريدُ السِّماتِ:
سِمَةٌ مِنَ الحُلُمِ الطَّويلْ.
سِمَةٌ مِنَ الأَلَقِ القَتيلْ.
سِمَةٌ يُوَشِّحُها رَنينُ المسْتَحيلْ.
خَطَواتُهُ رَسْمٌ غَريبٌ
دونَ ذاتِ!
كُلُّ المدى أَحْلامُهُ،
وَحُقولُهُ لَحْنٌ طَويلٌ
غارِقٌ في النورِ
خارِجَ هَذِهِ الدُّنْيا.
أَبي زَفَّتْهُ لِلدُّنْيا حُروفُ الشِّعْرِ،

ثُمَّ تَلاشَتِ الكَلِماتُ فيهِ،
غَريبَةً عَنْهُ،
وَضاعَتْ في الشَّتاتِ.
كُلُّ المدى أَحْلامُهُ...
وَيَظَلُّ يَفْتَحُ ذاتَهُ،
مَحْمولَةً عَبْرَ الهَواءِ،
كَأَنَّ فيها أَلْفَ لَوْنٍ
مِنْ أَغاني هَذِهِ الدُّنْيا
تَهيمُ بِلا ثَباتِ.
وَأَبي حَنينُ صَداقَةٍ أَبَدِيَّةٍ
لا شَيْءَ فيها غَيْرَهُ،
شَفّافَةٌ كالنورِ، لا تُؤْذي

وَيُؤْذيها صَهيلُ الواقِعِ العالي،
وتَنْضَحُ رِقَّةً.
أَحْلامُها غَيْثٌ عَلى أَرْضٍ مَواتِ...
وَأَنا خَيالُكَ، يا أَبي،
لَكِنَّني ما زِلْتُ أَحْلُمُ فيكَ،
أُكْمِلُ ما تُوَزِّعُهُ مُناكَ مِنَ الهِباتِ.
في الغَيْبِ تَحْمِلُني إِلَيْكَ،
أَطيرُ مِنْ حُلُمٍ إِلى حُلُمٍ،
وَمِثْلُكَ أَسْتَسيغُ الهامِشَ المفْتوحَ،
أَبْقى فيهِ،
أُصْلِحُ ذاتَ بَيْني،
ثُمَّ أَخْرُجُ عارِيًا مِثْلَ الضِّياءِ

بِلا صِفاتِ...
وَأَنا خَيالُكَ، يا أَبي،
بَيْني وَبَيْنَكَ هَذِهِ الأَيّامُ
نَسْكُنُها لِتَحْلُمَ.
نَسْكُنُ الغَيْبَ الطَّويلَ
فَتُزْهِرُ الأَيّامُ فينا –
كُلُّ يومٍ رِحْلَةٌ
لا شَيْءَ فيها غَيْرَها؛
وَلَنا عَلى شَطِّ الرُّؤى راياتُنا،
وَلَنا حَياةٌ خارِجَ الدُّنْيا
وَأَجْمَلُ مِنْ تَواشيحِ الصَّلاةِ،
فَلِمَنْ أُرَدِّدُها،

وَكَيْفَ تَغيبُ، بَعْدُ، عَنِ الحَياةِ؟

***

– ج –

أَمشي...

وَفي خَطْوي فُصولٌ...

كُلُّ ذاتي شاشَةٌ...

أُمّي تَجيءُ إِلَيَّ مِنْ دَرْبِ الطُّفولَةِ.

وَجْهُها شَمْسٌ

وَخَطْوَتُها حُقولُ القَمْحِ

تَلْعَبُ في مَجالِ الرّيحِ.

صَيْفٌ قَلْبُها

وَرَنينُهُ عَزْمٌ سَماوِيٌّ،
وَبَسْمَتُها ٱنْكِشافُ الرّوحِ
طارَ بها المكانُ.
وَتَظَلُّ تَغْرُسُ في شِعابِ الوقْتِ بَسْمَتَها
لِيَحْضُنَها الزَّمانُ.
أُمّي ذِراعُ العَزْمِ
إِنْ رَمَتِ الخُطوبُ شِباكَها يومًا،
تُقَطِّعُها وتَحْفُرُ في الطريقِ ظِلالَها.
يَتَفَتَّحُ الزَّهْوُ الرَّفيقُ
على حُدودِ فُؤادِها
لِيَصيرَ حَقْلًا مِنْ ذُهولٍ
يَنْتَهي بِذُهولِهِ،

وَيَصيرُ كُلُّ العُمْرِ في يَدِها
بِشارَةَ ما سَيَأْتي –
كُلُّ هَذا العُمْرِ في يَدِها
تَكَوَّمَ طينةً عَجَنَتْ بِها الآتي
وَكَلَّلَها ٱفْتِتانُ.
أُمّي،
خَرَجْتُ إِلَيْكِ مِنْ رَحِمِ الزَّمانِ شَرارَةً
ذابَتْ بِلَأْلاءِ ٱفْتِتانِكِ،
وَٱقْتَطَعْتِ لَها قَليلًا مِنْ حَرارَتِكِ الشَّبوبَةِ
كَيْ تُحَقِّقَ ما أَرادَ ضَميرُكِ الشَّفّافُ
أَنْ يَأْتي بِهِ،
فَخُذي أَنايَ إِلى أَناكِ

لِكَيْ أَصيرَ عَلى مَصَبِّ مِياهِها
بَعْضَ الرَّذاذِ،
لِكَيْ أَصيرَ رِهانَكِ ٱلمرْفوعَ
في زَمَنِ العَوارِضِ والمدى...
فَأَنا الضَّمانُ!
وخُذي القَصيدَةَ مِنْ بِدايَتِها
فَلَيْسَ لَها سِواكِ الآنَ،
لَيْسَ لِقَلْبِيَ المفْتوحِ لِلذِّكْرى
سِوى ما خَلَّفَتْهُ هُدْنَةُ الأَيّامِ
في عَيْنَيْكِ مِنْ وَرْدٍ.
خُذيني في دُروبِ رُؤاكِ
أَقْطِفْ حُلْمَكِ المفْتوحَ في السّاعاتِ،

أَرْفَعُهُ عَلى جُرْحِ المشيئَةِ
كَيْ يُبَلْسِمَها
فَتَنْهَضَ مِنْ خِلالي،
والقِرانُ
بَيْني وَبَيْنَ الحُلْمِ يَبْدَأُ مِنْ أَناكِ —
أَنا أَناكِ،
فَكُنْ، يُها الحُلُمُ الطّويلُ، ضَميرَها فِيَّ.
ٱنْتَظِرْني في زَوايا الوَقْتِ
أَخْرُجْ مِنْ أَناها مُشْرِقًا كالشَّمْسِ،
لَيْسَ بِيَ ٱرْتِهانُ.
بَيْني وَبَيْنَكِ كُلُّ هَذا الحُلْمِ، يا أُمّي،
فَشُدّي ثَنْيَتَيْهِ يَضُمَّنا

وَيَطِرْ إِلى سَمْتِ الزَّمانِ مُحَلِّقًا،
فَأَنا الرِّهانُ... أَنا الرَّهانُ...
هَذي أَناكِ تَعودُ فِيَّ إِلَيْكِ،
فَانْتَظِري هُجوعَ الدَّهْرِ،
يا أُمّي، بِقَلْبِكِ،
موقِدًا آناتِهِ حَطَبًا
لِيَرْتَفِعَ الدُّخانُ
وَيَكونَ قَلْبُكِ وَهْوَ يَنْبِضُ بالخُلودِ
مُصَوِّرًا عَزْمَ البطولَةِ
حينَ تَجْتاحُ الزَّمانَ
فَتَخْشَعُ الدُّنْيا لِما كُنّا وكانوا...
تَرَكَتْ خُطانا في الطريقِ وَقودَها

فَتَضَرَّمَتْ لَهَبًا،
فَإِذْ بِالوَقْتِ شاهِدُنا العَيانُ.
كُلُّ المدى
مِنْ قَلْبِكِ المفْتوحِ بِالأَعْلى
حُقولٌ مِنْ ضِياءٍ.
كُلُّ خَطْوٍ، حينَ نَخْطو،
كانَ فَتْحًا في مُغامَرَةِ الزَّمانِ،
فَلَيْسَ في أَسْوارِنا ضَعْفٌ
وَلَيْسَ بِها جَبانُ.
هَذي أَناكِ تَعودُ بِيَّ إِلَيْكِ،
يا أُمّي،
فَكَيْفَ أَخُطُّ أَحْرُفَها

وَقدْ عَجِزَ البَيانُ؟

***

– د –

أَمشي...

وَفي خَطْوي فُصولٌ...

كُلُّ ذاتي شاشَةٌ...

وَأَرى مَلاكًا

خارِجًا نَحْوي مِنَ العُمْرِ الغريبِ،

يَطيرُ بي صُعُدًا

وَيَكشِفُني لَهُ،

فَغِناؤُهُ لَحْنٌ يطيبُ

وَصَوْتُهُ دَرَجٌ تُعَلّيهِ السَّماءُ.
عَبَرَ الزَّمانَ إِلَيَّ مِثْلَ فُجاءَةٍ
خَرَجَتْ ذُهولًا مِنْ لُهاثِ الحُلْمِ
فَانْكَشَفَ البَهاءُ
لِتَصيرَ أَيّامي لَهُ شَمْسًا تُغَنّيهِ
فَيَأْسُرُهُ الغِناءُ.
وَلَهُ فَرَشْتُ العُمْرَ حَقْلًا
مِنْ ذُهولٍ مُشْرِقٍ
فَهَمى عَلَيْهِ غَيْثُهُ،
وَتَغَلْغَلَتْ قَطَراتُهُ في العُمْقِ.
صِرْتُ وِلادَةً فيهِ تُغَيِّرُني،
كَأَنّي لَمْ أَكُنْ مِنْ قَبْلُ

أَوْ لَمْ أَعْرِفِ الأَنْوارَ زاهِيَةً،
وَتَكْشِفُني لِذاتي عارِيًا
فَأَطيرُ في الرؤْيا
وَيَرْفَعُني السَّناءُ
حَتَى حُقولِ المستَحيلِ...
يَعودُ بي طِفْلًا يَضِجُّ بِهِ الشَّبابُ،
فَلَيْسَ فيهِ سِوى أَناهُ،
وَقَدْ تَشَعَّبَ،
حينَ هَلَّ مَلاكُهُ فيهِ،
"أَنا" أُخْرى
وَعانَقَهُ ٱكْتِفاءُ.
هَذا مَلاكي

مَرَّ كَالشَّرَرِ العَجيبِ
عَلى مَدى عُمْري،
فَعَتَّقَني، وَحَمَّلَني الرَّحيقَ...
فَيا "مَلاكَ الإِنْتِظارِ"،
يَداكَ بَلْسَمَتا زَماني
واستفاقَ الطينُ من حَوْلي
لِيَغْدُوَ مِنْ أَثيرٍ،
فيهِ نَفْحُكَ عابِقًا،
وَعلى تَراميهِ الضِّياءُ
تَتَفَتَّحُ الأَزْهارُ عَنْهِ،
وَيُسْرِجُ العُمْرُ الشَّبوبُ حِصانَهُ،
فَالوَقْتُ لَمْحٌ مِنْ سَرابٍ عابِرٍ،

وَالوَقْتُ مِطْرَقَةُ الدُّخانِ
تَبَدَّدَتْ في مَسْرَحِ الأَبَدِ العَريقِ.
ويا "مَلاكَ الإِنْتِظارِ"،
بَقَيْتَ فِيَّ،
وَلَوْ رَحَلْتَ،
وَخابَ ظَنُّ الموْتِ –
خابَ الموْتُ
وٱنْكَفَأَتْ مَرارَتُهُ إِلَيْهِ،
وَلَيْسَ غَيْري فيكَ تَنْبِضُ بي،
وَأَنْبِضُ بِالحَياةِ.
هُناكَ، يا مَوْتُ، ٱرْتَمَيْتَ
بِصَرْحِكَ المعْصومِ في الأَدْنى مِنَ الظُّلُماتِ

فَانْكَفَأَتْ يَداكَ
وَطالَ في قَلبي ٱزْدِراءُ...
ما زِلْتُ أَنْبِضُ بِالحَياةِ،
وَها "مَلاكُ الإِنْتِظارِ" يَعيشُ فِيَّ،
فَعُدْ إِلى مَلَكوتِكَ الخاوي،
وَرُدَّ البابَ،
وَلْيَكُنِ البَهاءُ
وَجْهًا لِعُمْرٍ لَيْسَ يَسْكُنُهُ
سِوى لَحْنٍ أَثيريٍّ تَعالى فِيَّ،
فَانْكَسَرَ القَضاءُ —
فَأَنا مَصيري هَهُنا،
وَأَنا القَضاءُ...

أَنا القَضاءُ...

***

– هـ –

أَمشي...
وَفي خَطْوي فُصولٌ...
كُلُّ ذاتي شاشَةٌ...
كانَ الظّلامُ يُحيطُ بي،
وَالليلُ عَشَّشَ في كِياني،
وَالوُجومُ
يَرْسو ثَقيلًا فِيَّ،
يَخْنُقُني، فَتَنْفَجِرُ الهُمومُ.

كانَ المدى شَوكًا يُمزّقُني
وَيَكْسِرُ فِيَّ أَحْلامي ظَلامي،
وَالرَّدى حَوْلي يُحاصِرُني
وَيَسْخَرُ مِنْ صَلاتي:
كُلَّما صَعَّدْتُها ٱنْكَفَأَتْ إِلَيَّ
وَرَدَّها صَمْتٌ عَظيمُ...
وَفُجاءَةً
نَزَلَتْ بَنَفْسَجَةٌ إِلَيَّ مِنَ الصّلاةِ
أَرَقَّ مِنْ هَمْسِ الصَّلاةِ
تَلُمُّ أَشْلائي بِرِقَّةِ صَوْتِها،
وَتُعيدُ لي أَلَقي.
يَداها تَمْسَحانِ الليلَ عَنْ قَلْبي،

وَبَسْمَتُها تَرُدُّ إِلَيَّ
ما ضَيَّعْتُ مِنْ وَحْيٍ،
وَتَرْأَبُ كائِني
وَأَنا رَميمُ...
نَزَلَتْ بَنَفْسَجَةٌ إِلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ
فَضَوْءُها نورٌ،
وَعَيْناها ٱنْفِتاحُ الأُفْقِ في دَرْبي
إِلى أَبَدِيَّةِ الأَحْلامِ –
صارَتْ بَيْنَ أَحْلامي وَبَيْني
هامِشَ الأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ
تَنْزِلُ مِنْ عُلاها كَيْ تَطيرَ بِنا
إِلى ما لَيْسَ تَعْرِفُهُ التُّخومُ.

حَفَرَتْ بِقَلْبي
ما تُنَزِّلُهُ السَّماءُ مِنَ الضِّياءِ،
فَلَوْنُها كُلُّ السَّماءِ،
وَصَوْتُها عِطْرُ السَّماءِ،
وَقَلْبُها نَبْضُ السَّماءِ
يَضُمُّها قَلْبي فَتَتَّقِدُ النُّجومُ...
جاءَتْ إِلَيَّ مِنَ الصّلاةِ
أَرَقَّ مِنْ هَمْسِ الصّلاةِ،
فَعادَ لي لَهَبي الَّذي ضَيَّعْتُهُ،
وَخَرَجْتُ مِنْ كُوَمِ الرَّمادِ
لِأَسْتَرِدَّ مِنَ الرَّدى وَجْهي.
وكانَتْ كُلَّما كَلَّلْتُها بِفُؤادِيَ المفْتوحِ

تَرْسُمُني ذُهولًا
فاضَ مِنْ مَلَكوتِها السِّحْرِيِّ...
جاءَتْ مِنْ كِياني
أَسْتَرِدُّ بِها كِياني:
عادَ لي أَلَقي العَميقُ،
وَعُدْتُ فيها شامِخًا كَالبَرْقِ،
لا لَيْلٌ يَمُدُّ عَلَيَّ ظُلْمَتُهُ،
وَلا نَقْصٌ ذَميمُ...
وَرَأَيْتُني فيها أَشَفَّ مِنَ الضِّياءِ،
أَعودُ نَحْوي واثِقًا
وَمُضَرَّجًا بِسَنايَ،
مُؤْتَلِقًا كَنورٍ

نَدَّ عَنْ وِجْدانِها المفْتوحِ لي،
فَضِياؤُها سِحْرٌ مَديدٌ
لَيْسَ يَغْشاهُ وُجومُ...
وَأَنا بِها هَذا المدى المفْتوحُ لِلْأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ،
أَحْمِلُ قَلْبَها ضَوْءًا
يُضيءُ مَنارَةَ الأَشْياءِ في دُنْيايَ،
يَرْفَعُني إِلَيْهِ
فَيَرْتَوي فِيَّ الذُّهولُ وَيَسْتَقيمُ...
وَأَنا بِها وَجْهي الَّذي ٱكْتَمَلَتْ مَلامِحُهُ،
بِهِ ٱلأَيّامُ مُشْرِقَةٌ،
وَمِنْ غَدِهِ تَقومُ.

***

أمْشي إِلَيَّ وأَرْتَدي عُمْري،
وَعُمْري خارِجٌ مِنْ وَطْأَةِ الزَّمَنِ...
هَذا أَنا...سَمّيْتُني
فَتَسَمَّتِ الأَشْياءُ فِيَّ بِذاتِها.
وَرَأَيْتُ ما حَمَلَتْهُ آلافُ العُصورِ،
فَما ذَهَبْتُ

وَما رَجِعْتُ،
وَلا ٱسْتَقَرَّتْ في المدى سُفُني...
ذاتي سَديمٌ أَبْيَضٌ
شَالَتْ بِهِ الأَحلامُ، يَحْمِلُني
وَيَطيرُ خارجَ سَقْفِ واقِعِيَ الصَّغيرِ،
فلا بِدايَةَ أوْ نِهايَةَ،
لا زَوالٌ أَوْ بَقاءٌ...
كُلُّ شَيْءٍ واحِدٌ،
وَالعُمْرُ يَنْقُلُني
مِنّي إِلَيَّ...
أَنا الخَريطَةُ وَالمَسارُ،
وَكُلُّ ما حَوْلي يَقودُ إِلَيَّ،

يَعْجُنُني
فَأَعودُ نَحْوَ النُّقْطَةِ البَيْضاءِ،
قُوَّتِيَ الحُضورُ،
وَرِحْلَتي ضَرَّجْتُها بِمِدادِ روحي
وَٱرْتَدَيْتُ حُروفَها لِتَصيرَ فِيَّ
قَصيدةَ الزَّمَنِ الَّذي لا يَنْتَهي...
أَوْراقُها الأَيّامُ لَوَّنَها
صَهيلُ الرّوحِ يُحْرِقُني
وَيُعيدُ تَكْويني مِرارًا...
كُلُّ شَيْءٍ فِيَّ يَبْرُقُ عارِمًا،
وَنِسائِيَ السّاعاتُ تَرْقُدُ فَوْقَ صَدْري
كَيْ تَقومَ كَثيرَةً وكَثيرَةً...

وَتَرُدَّ عَنّي، حينَ تَحْضُنُني،
غِيابَ الوَقْتِ في أَدْغالِ مَنْفاهُ،
وَتَنْفيني إِلَيَّ.
أَعودُ لا وَقْتٌ،
وَلا زَمَنٌ يُسَوِّرُني
تاريخِيَ الشِّعْرُ الَّذي لا يَنْتِهي،
وَمِدادِيَ الوَحْيُ الَّذي قَطَّرْتُهُ في الحَرْفِ
فانْبَثَقَ الوُجودُ.
هَذا هُوَ الآتي — أنا الآتي.
أنا الزَّمَنُ الَّذي لا يَنْتِهي،
وَالشِّعْرُ يَحْمِلُني إِلَيَّ
لِيَحْتَمي فِيَّ الخُلودُ.

هَذا هُوَ الآتي
وَلَيْسَ سِوايَ فِيَّ.
أَنايَ كُلُّ دَقيقَةٍ
تَأْتي إِلَيَّ لِكَيْ تَصيرَ عُصورَ نورٍ.
كُلُّ ما فِيَّ ٱشْتِعالٌ دائِمٌ،
وَمَدًى تَمَدَّدَ في السَّديمِ
فَلا تُسَوِّرُهُ حُدودُ.
هَذا أَنا... كُلُّ الأَنامِ أَنا،
وَكُلُّ قَصائِدِ الشُّعَراءِ
وَالشِّعْرُ المزَيَّنُ بِالحَقيقَةِ خارِجَ الدُّنْيا.
أَنا الصَّوْتُ الجَديدُ.
وَأَنا ضَميرُ الناسِ

حِينَ يَصيرُ صَوْتًا داوِيًا
في ظُلْمَةِ السّاعاتِ،
يُحْرِقُ رَهْبَةَ الجَبَروتِ،
يُسْقِطُ ظالِميهِمْ عَنْ عُروشِهِمِ.
أَنا الشِّعْرُ السَّماوِيُّ المديدُ...
وَأَنا ٱشْتِعالُ الوَحْيِ
في صَوْتِ الحُروفِ وَأَبْجَدِيَّتِها.
أَنا الفَرَحُ الشَّرودُ.
وَأَنا الخُلودُ...
أَنا الخُلودُ...
أَنا الخُلودُ...

(١٠ – ٢٢/ ٣/ ٢٠٢٣)



وَأَنا... أَنا! لا شَيْءَ آخَرَ،

لَيْسَ فِيَّ سِوايَ

حَتّى في ٱزْدِواجِ طَبيعَتي:

طِفْلٌ تَقافَزَ في المدى حَوْلي

وَكَهْلٌ عاصَرَ الأَوْقاتَ مُخْتَلِفًا،

وَجَرَّحَهُ القَتامُ...

لا شَيْءَ فِيَّ وَخارِجي إِلّايَ –

وَعْيٌ وَحْدَهُ يُعْطي الوُجودَ وُجودَهُ،

فَهْوَ التَّبَعْثُرُ وَالتَّجَمُّعُ،

وَالتَّدَهْوُرُ وَالنِّظامُ.

وَعْيٌ مَليءٌ بي،

وَسِرٌّ غامِضٌ كَالخَلْقِ يَأْسُرُني،

فَكَيْفَ تُعَبِّرُ الكَلِماتُ عَنْ وَعْيي،

وما يُجْدي الكَلامُ؟